وصول الإسلام إلى البلقان

من تجمّعات قبائل السلاف في الشمال ما كان حول مدينة بُلغار (قازان) اليوم، وقد أخذت المنطقة كلها اسم قاعدتها بُلغار، وكان السكان جميعاً لا يزالون على الوثنية. وشاءت إرادة الله أن يزورهم بعض تجار الفراء المسلمين وأن يدعوهم إلى دينهم، وأن يشرحوا لهم الإسلام، فارتاحت نفوس البُلغار لما سمعوا، واطمأنت أفئدتهم، وآمنت قلوبهم.

غير أن تجار الفراء لم يلبثوا أن غادروا المنطقة وتركوا من أسلم دون منهل يستقون منه يروون قلوبهم الظمأى التي قبلت الإسلام وتعلّقت به. وإن كانوا يمرون أحياناً للتجارة وللدعوة. وكان أحد هؤلاء التجار، ويُدعى (نذير الحزمي) قد حدّث ملك الصقالبة (ألمس بن شلكي بلطوار) عن الإسلام فسُرّ الملك بحديثه وأعجب ببيانه فبعث معه كتاباً إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله[1] يسأله فيه

(١) المقتدر بالله: هو الخليفة جعفر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل ابن محمد المعتصم بن هارون الرشيد. ولد المقتدر يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وأمه أم ولد تدعى (غريب)، ومرض أخوه المكتفي فعهد إليه، وعمره لا يزيد على الثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. بويع يوم الأحد لأربع عشرة مضت من ذي القعدة من سنة خمسٍ وتسعين ومائتين، واستمرت خلافته حتى سنة عشرين وثلاثمائةٍ إذ قُتل لليلتين بقيتا من شوال.

أن يبعث إليه من يُفقِّهه في الدين، ويُعرّفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع أنحاء بلده وأقطار مملكته، ويسأله بناء حصنٍ يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له، فأُجيب إلى ذلك.

يقول ابن فضلان[1]: فبدأت أنا بقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه. وكان الرسول من جهة السلطان سوسن الرسي[2] مولى نذير الحزمي.

قال ابن فضلان: فرحلنا من مدينة السلام[3] لإحدى عشرة ليلةً خلت من صفر سنة ٣٠٩، ثم ذكر ما مرّ به في الطريق إلى

(١) ابن فضلان: أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: صاحب الرحلة إلى بلاد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة المعروفة بـ «رسالة ابن فضلان». كان من موالي محمد بن سليمان الحنفي (القائد الذي أعاد مصر من الطولونيين إلى الدولة العباسية)، ثم أصبح من موالي الخليفة المقتدر العباسي. وأرسله المقتدر إلى ملك الصقالبة، وقد بعث يرجو العون على مقاومة ضغط الخزر عليهم من الجنوب، وأن ينفذ إليه من يُفقّهه في الدين ويُعرّفه شعائر الإسلام. وقامت البعثة في ١١ صفر ٣٠٩هـ (٢١ حزيران ٩٢١م)، وقد دوّن ابن فضلان خط سير البعثة، غير أن خط الرجعة لم يعرف لضياع القسم الأخير من الرسالة.

(٢) سوسن الرسيّ: كان رئيس البعثة إلى ملك الصقالبة مع أن أكثر المصادر تشير إلى رئاسة ابن فضلان، ويبدو أن هذا قد نشأ بسبب مكانة ابن فضلان، ورسالته التي تُعدّ المصدر الرئيسي لتلك الرحلة.

(٣) مدينة السلام: بغداد.

خُوارزم، ثم منها إلى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه، ثم قال: فلما كُنّا من ملك الصقالبة -وهو الذي قصدنا له- على مسيرة يومٍ وليلةٍ وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يديه، وإخوته، وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاوَرْس، وساروا معنا، فلما صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل فخرّ ساجداً شكراً لله، وكان في كُمّه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قباباً فنزلناها، وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلةً خلت من المحرم سنة ٣١٠، وكانت المسافة من الجرجانية، وهي مدينة خُوارزم، سبعين يوماً، فأقمنا إلى يوم الأربعاء بالقباب التي ضُربت لنا حتى اجتمع ملوك أرضه وخواصه ليسمعوا قراءة الكتاب، فلما كان يوم الخميس نشرنا المطردين[1] اللذين كانا معنا، وأسرجنا الدابة بالسرج الموجّه إليه، وألبسناه السواد وعمّمناه، وأخرجت كتاب الخليفة فقرأته، وهو قائم على قدميه ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس، وهو قائم أيضاً، وكان بديناً، فنثر أصحابه علينا الدراهم، وأخرجنا الهدايا وعرضناها عليه، ثم خلعنا على امرأته، وكانت جالسةً إلى جانبه، وهذه سنتهم ودأبهم، ثم وجّه إلينا فحضرنا قبته وعنده

(١) المطردين: مثنى مطرد وهو اللواء.

الملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس على يساره، وأولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشّىً بالديباج الرومي. فدعا بالمائدة فقُدّمت إليه وعليها لحم مشوي، فابتدأ الملك، وأخذ سكيناً وقطع لقمةً فأكلها وثانيةً وثالثةً، ثم قطع قطعةً فدفعها إلى سوسن الرسول فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجُعلت بين يديه، وكذلك رسمهم لا يمدّ أحد يده إلى أكلٍ حتى يُناوله الملك فإذا تناولها جاءته مائدة، ثم قطع قطعةً وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة وكذلك حتى قُدّم إلى كل واحدٍ من الذين بين يديه مائدة، وأكل كل واحدٍ منا من مائدةٍ لا يُشاركه أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الأكل حمل كل واحدٍ منا ما بقي من مائدته إلى منزله فلما فرغنا دعا بشراب العسل، وهم يُسمّونه «السجو» فشرب وشربنا. وقد كان يُخطب له قبل قدومنا: اللهم أصلح الملك بلطوار ملك بُلغار، فقلت له: إن الله هو الملك ولا يجوز أن يخطب بهذا لأحدٍ سيما على المنابر، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد وصّى لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين، فقال: كيف يجوز أن يقال؟ فقلت: يُذكر اسمك واسم أبيك، فقال: إن

أبي كان كافـراً، وأنا أيضاً ما أُحب أن يُذكر اسـمي إذ كان الذي سمّـاني به كافـراً، ولكن ما اسم مـولاي أمير المؤمنـين؟ فقلت: جعفـر، قال: فيجـوز أن أتسمّى باسمه؟ قلت: نعم، فـقال: قد جعلت اسـمي جعفـراً، واسم أبي عبداللـه، وتقدّم إلى الخطيب بذلك، فكان يخطب: اللهم أصلح عبدك جعفـر بن عبدالله أمير بُلغار مولى أمير المؤمنين و. . .

وهكذا أسلم أهل بُلغار. .

أما ملك الروس فقد تحوّل (فلاديمير) إلى النصرانية، وجهر بها ديانةً له، وتبعه قومه عام ٣٧٨هـ (٩٨٨م)، ولما كانت هذه الديانة قد أخـذت من القسطنطينية فـهي الأرثوذكسية، وهكذا أصـبحت القبائل الروسية نصارى أرثوذكس، وأصبحت هذه العقيدة تترسّخ في نفوس الروس.

انتقال قبائل البُلغار:

لقد انتـقلت قبائل البوشـناق، واستقرّت أول الأمـر في منطقة ترانسلفانيا في الأجزاء الغربية من رومـانيا اليوم. وبعد مدةٍ عادت فانتـقلت إلى الجنوب الغربي أيضاً، وحطّت رحـالها فيمـا يُعرف اليوم باسم البوسنة، حـيث أعطت المنطقة التي أقامت بها اسـمها (البوسنة نسبةً إلى البوشناق).

وانتقلت قبائل الكومان وأقامت في ترانسلفانيا حيث أقام البوشناق في أول محطةٍ لهم. وانتقلت بعض قبائل الباشغرد، وأقامت في المجر، وقد بقيت قبائل من الباشغرد في مواطنها في منطقة بُلغار في حوض نهر الفولغا، وهي التي تُعرف اليوم باسم (الباشكير) أو (الباشغرد) وعاصمتهم مدينة (أوفا)، ولهم اليوم جمهورية خاصة بهم سكانها من المسلمين. وصلت قبائل الباشغرد إلى المجر في القرن الرابع الهجري فعاشت مطمئنةً، غير أن المجريين قد اعتنقوا الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي في القرن الخامس الهجري فأخذوا يُضايقون قبائل الباشغرد المسلمة، ويُذيقونها مرّ العذاب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإن كان يسمح للمسلمين بالسفر إلى الدول الإسلامية كي يتعلموا أمر دينهم. وقد ذكر ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان أنه التقى بأحد أفراد هذه المجموعة عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) في مدينة حلب فقال: وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كبيرة يقال لهم الباشغردية، شقر الشعور والوجوه، يتفقهون على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، فسألت رجلاً منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمةٍ من الإفرنج يقال لهم: (الهُنْكَر)[1]، ونحن مسلمون رعيةً

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة باشغرد.

لملكهم في طرف بلاده نحو ثلاثين قريةً، كل واحدة تكاد تكون بُليدةً، إلا أن ملك الهُنْكر لا يُمكّننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصى عليه، ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد البابا يعني روميا، والبابا رئيس الإفرنج، وهو عندهم نائب المسيح، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين، يُنفّذ أمره في جميع ما يتعلّق بالدين في جميعهم.

قال: ولساننا لسان الإفرنج، وزيّنا زيّهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفةٍ لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام -فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد كفر؟ فقال: سمعت جماعةً من أسلافنا يتحدّثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهرٍ طويلٍ سبعة نفرٍ من المسلمين في بلاد البُلغار، وسكنوا بيننا وتلطّفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله، والحمد لله، فأسلمنا جميعاً، وشرح الله صدورنا للإيمان، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقّه فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولّونا أمور دينهم[1].

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة باشغرد.

وإن ملوك المجر النصارى قد أصدروا ضدّ المسلمين قوانين تعسّفيةً، وكانت أوربا قد قامت بالحروب الصليبية على ديار الإسلام. وأول هؤلاء الملوك من المجر (لاديسلاوس) الذي تسلّم السلطان من ٤٧١ حتى ٤٨٩هـ حيث شنّت أوربا حربها الصليبية في آخر عام من حكمه، فأصدر تلك القوانين وتبعه الملوك الذين جاؤوا بعده حتى كانت أيام الملك شارل روبرت (٧٠٨-٧٤٣) حيث أرغم رعاياه جميعاً الذين لم يكونوا نصارى على أن يعتنقوا النصرانية أو يُغادروا البلاد.

كما وصل إلى المنطقة مسلمون من المغرب والأندلس، وعملوا على نشر الإسلام، وهذا ما ذكره أبو حامد الغرناطي في كتابه (تحفة الألباب ونخبة الآداب في القرن السادس الهجري).

إذن وصل الإسلام إلى البلقان قبل الفتح العثماني، وأشهر القبائل التي وصلت في تلك المرحلة قبائل البوشناق، ولكن لم يذكر ذلك المؤرخون، وذلك لأن المسلمين:

١- كانوا تحت سلطان غيرهم ويخضعون لضغطٍ شديدٍ.

٢- كانوا في عزلةٍ عن باقي المسلمين.

٣- لم تكن معلوماتهم الإسلامية كافيةً، إذ جاؤوا وهم حديثو

عهدٍ بالإسلام، لم يربوا التربيـة المطلوبة، ولم يعيشوا في ظل حكمٍ إسلاميٍ فيعرفـوا تطبيق المنهج الإسلامي هذا إضافة إلى العزلة وعـدم وجود موردٍ إسـلامي لهم لذا كانوا بعـيدين عن الساحة وعن محطّ النظر، ولكن ظهروا بعد الفتح العثماني.

كانت الإمبراطورية البـيزنطية صاحبة السـيطرة والنفوذ في شبه جزيرة البلقان، وقد مُنح الصرب عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م) نوعاً من الحكم الذاتي في ظلّ هذه الإمبراطورية. وأخـذ الصرب يستولون على الأراضي من الأليريين (الألبان).

وأخـذت الإمبـراطورية البـيزنطيـة تميل نحـو الضعف بسـبب ضربات العثمانيين المسلمين واقـتطاعهم أجزاء بعد أجزاء من تلك الإمبـراطورية العـجوز. فـأسّس الصرب مملكةً لهم عـام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) ودعـمتـهم الكنيسـة الأرثوذكـسيـة، وأعطتهم التـاج لتنصـيب الملك (دوشان) الذي اسـتـغلّ قيـام الحرب الأهليـة في الدولة البيزنطية فأخذ يوسّع حدوده نحو الجنوب.